

## مارك أبيليس: أنثروبولوجيا تواجه اختلالات العالم

خليفة صويلح

تراكم العولمة مقولاتها لمصلحة رأس المال في المقام الأول تحت يافطة «نقود تصنع نقوداً» بصرف النظر عن فكرة الدولة/ الوطن، أو عن طريق إطاحة الجغرافيا من الجذور بسطوة أسواق النقد. لن يجد ماركس مكاناً له في عربة «موت التاريخ»، إذ انمحت نظريته في وضوح النهار أمام الواقع السحري للعولمة الذي قلص الحدود والعوائق الجغرافية بفضل سيل التبادلات المتجاوزة للاوطان، والتحكّم عن بعد بالسلع والمعلومات والأفكار والبشر.

في كتابه «أنثروبولوجيا العولمة» (2008) الذي انتقل أخيراً إلى العربية (دار التنوير)، ترجمة عبد الحميد بورايو، يواجه عالم الإناسة الفرنسي مارك أبيليس أسئلة العولمة بأطروحات مضادة، بقصد تفكيك مفاهيمها والغازها، وردم الفجوة بين المحلي والمعولم، داعياً إلى أنثروبولوجيا منفتحة ونقدية على استعداد لأن تواجه بجلاء الاختلالات الجديدة للعالم. المنظرون الماركسيون الجدد وجدوا الوصفة المناسبة لمفهوم العولمة بأنها «المرحلة الأخيرة من الرأسمالية». لكن آخرين ركزوا رؤيتهم على الأشكال الحديثة للتراكم أو على وجود «طبقة رأسمالية كونية» حيال كثافة السيولة وتسارع المبادلات. من جهته، يتساءل مارك أبيليس: عولمة أم تنوير؟ ثم يجيب: «ليس هناك نهاية للتاريخ» لعلها فترة مؤقتة، ولا بد من التكيف لمواجهة خطر عولمة غير مراقبة تحمل سمات الليبرالية الجديدة. وسوف يجد المحترفون بالآثار المفيدة للرأسمالية الكونية، فرصة لاستثمار أشكال من الاستغلال الذي أصبح أكثر إتقاناً

في سياق يكون فيه العمل الذهني في قلب إنتاج فائض القيمة، ونبت مفاهيم «الرأسمالية العتيقة». هذه التحولات الاقتصادية المتسارعة. وفقاً لما يراه الأنثروبولوجيون. تعمل بجد على انهيار مفهوم الدولة، وفي أحسن الأحوال تتوقف فاعليتها على ما هو ثانوي، بتلاشي الحدود. ذلك أن الهجرات أنتجت أشكالاً جديدة من الثقافات المهجنة في عالم جديد متحرك لمصلحة «توطن النموذج» وتماشيه مع الرغبات المحلية، وتالياً تقاسم التجربة رغم بعد المسافات، أو ما يمكن تسميته «تقصير الزمن وتضييق الفضاء».

هذه التشاركية يمكن تعميمها على أنماط السلع أو على لعبة كرة قدم، أو حتى على حرب في مكان ما. لا تتوقف فاعلية العولمة على الواجهة الاقتصادية فقط. هناك أيضاً، البعد الثقافي كإرضية أساسية لإشاعة رؤية تنكر أشكال الإثنية المركزية وتقوم على الاجتثاث الثقافي بتمثل ثقافة المركز والتشجيع على الانجذاب نحو أنماط من الغذاء واللباس والموسيقى. لم يعد مدهشاً إذا، أن نجد «الكوكاكولا» في أبعد قرية أفريقية، أو «مكدونالدز» في شنغهاي. وعلى هذا الأساس، فإن خطورة العولمة الثقافية أشدّ تعقيداً مما تظهر عليه للوهلة الأولى. فهي جوهرياً تعمل على «نزع الوطنية وإعادة التوطين» عن طريق التهجين والتوليف وتجنيس ثقافة جديدة تتلاءم مع المنظور ما بعد الكولونيالي للثقافات المحلية. أنثروبولوجي مثل جورج ماركوس لا يكتفي بالفرجة على المشهد بوصفه نسخة نهائية، فالأنثروبولوجيا ليست فرعاً من فلسفة التنوير، هذا اختزال فاضح. الأمر يتعدى ترجمة ما يفعله (الأخرون) إلى الاعتناء بالوضعيات



الهجرات  
أنتجت  
أشكالاً  
جديدة من  
الثقافات  
المهجنة

السياسة»، وتالياً العمل على إنتاج رؤية عن الدولة من أسفل: «تبشير السياسي في بعده الثقافي»، ونزوع أصيل للعناية بالهامش أكثر من عنايتها بالمركز، عبر تسليط الضوء على مجتمعات اندمجت في دول/ أوطان. من ضفة أخرى، يربط هذا الأنثروبولوجي بين العولمة والعنف كترجيع للاهتزازات الاجتماعية، أو ما يسميه «اقتصاد العنف»، وشيوع فكرة «القنابل البشرية»، واستيقاظ النزوع العرقي عند المهاجرين... كل هذه الارتدادات للعرورة الهوياتية أسهمت في تغذية العنف الخاص بالعولمة. لا يغفل صاحب «التفكير من خارج الدولة» الاهتمامات الأخرى للأنثروبولوجيا الراهنة، وخصوصاً ما يتعلق بأثر الهجرات على مجتمعات ما بعد الحدأة وصيغ الاندماج في الفضاء العمومي، وكيفية التوفيق بين تنوع الانتماءات الثقافية والانخراط في جماعة سياسية واحدة، منبهاً إلى عدم التماهي في المطابقة بين «المواطنة المرنة»، و«المواطنة المعولمة» التي ينزع بعضهم إلى ادعائها، وصولاً إلى الأسئلة الجديدة للمجتمع المدني، وانثاق تحالفات صلبة عابرة للحدود تحت عنوان «المنظمات غير الحكومية» كحلل مساعدة ميدانية. إلا أن غياب المراقبة الديمقراطية عن عمل هذه المنظمات سبب انحرافات صريحة لجهة الشفافية والشرعية التي تتمترس وراءها بشعارات براءة تتعلق بـ«اقتصاد البقاء»، واستثمار ما خلفته العولمة من اختلالات جعلت مجموعات من البشر «مجرد حثالة تتقاذهم الحياة السريّة ومخيمات اللجوء». عند هذا المنعطف يلتقي اقتصاد البقاء باقتصاد السوق أو الرأسمالية المعولمة.

اللعبة لمصلحة التبعية الاقتصادية وتحديد الهوامش التي تعمل فيها الدولة الوطنية. وإذا بنا حيال «سياسات ما فوق وطنية في إطار إقليمي» أفرزت عنفاً اجتماعياً أولاً، بتفكيك الأنسجة الثقافية التقليدية، وتعزيز ساحة معولمة تنتقل خلالها التدفقات الإرهابية بالتوازي مع كثافة المعلومات، بالإضافة إلى انثاق انتماءات هوياتية تتجاوز الإطار الوطني بوصفها مرجعيات ذاتية جديدة تؤكد على «حقبة ما بعد وطنية».

في هذا السياق، فإن أحد الآثار الكبرى للأنثروبولوجيا السياسية تتمثل في نزع القداسة عن وجه الدولة، والتمييز بين «العيش بالسياسة» و«العيش من أجل

المحلية التي تحيل بدون انقطاع على عالم معولم. نحتاج، وفقاً لتفسيره إلى «نظرة عالم الحشرات» في إعادة قراءة مفهوم التدفق، ودوران الصور، ومظاهر التشتت، وأثار الهجنة والمزج، وتفسير ثنائية «تكنولوجيات على درجة عالية من التعقيد، ومجموعات مكانية على عتبة العوز». ولكن أين تتموقع الأنثروبولوجيا في مواجهة المقاربات الوحشية لفكرة أفول الدولة/ الوطن؟ يشير مارك أبيليس إلى أن الحركية المتنامية لرؤوس الأموال حالت دون التوازن بين الدولة والسوق بضغط متتالية تتعلق بخفض الضريبة والخصخصة واختلال سوق العمل. فالعولمة غيرت قواعد

باكورة

## سمير يوسف: عندما يحرق الثلج

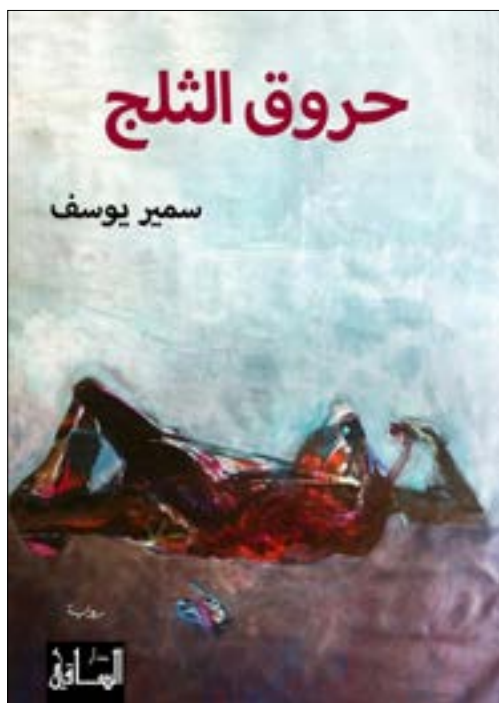
ساري موسى

في روايته الأولى، يتناول الكاتب والصحافي اللبناني سمير يوسف موضوعاً ظل مغيباً في الروايات العربية، إذ احتل مكانة ثانوية رغم أهميته وحضوره الرئيسي في الحياة اليومية المحجوبة وراء الجدران والتقاليد والشرائع، والذي لا يجب أن يبقى محجوباً عن الأدب، وهو موضوع الجنس والعلاقات الجنسية.

«حروق الثلج» (دار الساقى)، هي إحدى الروايات الفائزة بمنحة «أفاق» لكتابة الرواية، تحت إشراف الروائي اللبناني جبر دويهي، وقد عالجت هذا الموضوع بواقعية، بعيداً عن الانجرار إلى الابتذال والإنارة المجانية للغرائز. وفي موازاة «طرفية» الموضوع، فإن البيئة العكارية التي تجري فيها أحداث الرواية هي بيئة طرفية ليس في البلاد فحسب، بل في الرواية اللبنانية أيضاً. جوزيف، بطل الرواية، هو عنصر في قوى الأمن الداخلي يخدم في أحد المراكز الحدودية القريبة من قريته. يعيش نمط الحياة العسكرية الخالية من العنصر النسائي في العمل. وهو أصلاً شاب مدمن مشاهدة أفلام البورنو، يستنقظ من نومه في الليل ليشارك في فيلم. يستمني ليس أقل من ثلاث مرات يومياً، ويقوم بذلك

حتى في محرسه، الذي تجمعت وراءه كومة من المحارم. لا ينجح في إقناع خطيبته منال بإقامة علاقة يرغب فيها قبل الزواج. وفي المقابل، يخجل من استمراره في رفض مرافقة زميله إلى الماخور القريب الذي يترددان عليه. يقبل بذلك تحت ضغط إلحاح رغبته في الجنس، المتأججة باستمرار. فتبات الماخور هنّ من اللاجئات السوريات المقيمات في مخيمات الجوار. ضحايا من نوع خاص للحروب القاسية، اضطرن إلى الإشتغال في هذا العمل بعدما هربن مع أطفالهن وأهلهم العجّز، من دون رجالهن الذين أحرقتهم الحرب الجارية على الجانب المقابل من الحدود، من حيث يُسمع دويّ المعارك.

في هذا البيت أسفل الوادي، يلتقي جوزيف بليلى، اللاجئة ذات الجمال الفاتن، التي تذكره بممثلات البورنو. يصبح هاجسه أن يحصل على جسدها. وفي قرية قريبة من مركز خدمته، يتعرف إلى ماري، وهي شابة فرنسية تزور قريته مع أبيها. يدخل جوزيف في علاقة سهلة معها. تلاحظ منال التغيير الذي أصاب خطيبها، وتهزبه من لقاءها وانزواءه في غرفته حيث يشاهد المزيد من الأفلام. تعلم بتعجبها عن مركز خدمته عندما يذهب لمقابلة ماري أو إلى الماخور، فتفسخ خطوبتهما. ماريا تبتعد



يطرق  
باب الكبت  
والعلاقات  
الجنسية

وتبدأ بتهديده وإذلاله. تأمره بلبس «سترينغ» وصدريّة من عندها، تصوره بهما وترسل الصور إلى خطيبته السابقة مسببة له فضيحة، جعلته يكره نفسه ويبكي لساعات، ثم يحرق الكمبيوتر والراوتر كي يبتعد عن البورنو. هكذا، بسبب الكبت الجنسي وطرق التعويض عنه بمشاهدة أفلام البورنو المتاحة بسهولة، تنجم عن العلاقات الجنسية نتائج عكسية، أشبه بالإصابة بالحروق من الثلج، مع وجود دراسات تشير إلى أن 88% من أفلام البورنو تحتوي على عدائية جسدية ضد المرأة، و45% منها على عدائية لفظية، وهو ما قد يسبب مشاكل عند مدمني هذه الأفلام عند إقامة علاقة مع الشريك.

على الرغم من جودة الفكرة وجراتها، كان يمكن الرواية أن تحفر بنحو أعمق في مواقف معينة، مثل اللحظة التي تأتي فيها منال إلى بيت جوزيف وهي سكرانة بعد انفصالهما، وتمزق ثيابها قائلة له أن يفعل ما يشاء بجسدها. كان يمكن الكاتب هنا أن يصف لنا هذا الجسد ورد فعل جوزيف على انكشافه أمامه، وهو الذي سعى خلال فترة الخطوبة للحصول عليه من دون نجاح. كذلك كان يمكن أن يفتح للرواية باب جديد، من خلال إلقاء المزيد من الضوء على الشخصية الملتبسة لليلي.

في البيت - الماخور، ورفضها إعطاءه رقم هاتفها، يقرر أن يصور مضاجعتها لها في السرير. هنا تبلغ الرواية ذروتها، ويكتشف جوزيف بشاعة الحياة التي اندحر إليها. تلاحظ ليلي انشغاله بهاتفه الموجود على الأريكة فتشك في الأمر، تسبقه إليه وإلى مسدسه المجاور له،

أيضاً عن جوزيف بعد قلقها من سلوكه معها في السرير، إذ سرعان ما تكتشف إدمانه البورنو من خلال الوضعيات التي يطلب منها اتخاذها في أثناء العلاقة. تنصحه بزيارة طبيب نفسي لتخليصه من سلوكه وإدمانه. ومع اقتراب رحيل ليلي من الغرفة التي تستأجرها